

Representations of Value Conflict in Iraqi Novel: A Reading of Novel (The Beautiful) By Waarid Bader Al-Salem

Houmam Yassin Shukur, Suheib Majeed Naji*

Office of Religious Education and Islamic Studies, Presidency of Sunni Endowment Directorate (Diwan), Iraq

* sohaib.m.naji@gmail.com

KEYWORDS: Conflict, Values, Iraqi Novel, Globalization, Estrangement.

 Crossref  <https://doi.org/10.51345/v33i4.632.g308>

ABSTRACT:

After the ill-fated winds of change blew in 2003, the Iraqi cultural scene witnessed an opening and perhaps a breakdown at all religious, social, and political levels, and new values and customs emerged that entered into conflict with fixed values and customs, as the political change was followed by serious efforts to globalize a certain model of values, aimed at stereotyping the Iraqi self and shaping it according to an ideological line drawn by Western policies seeking to globalize its values and ideas. Based on the above, this study seeks to monitor the value conflicts that exist on the Iraqi scene, especially those that have taken on a religious and social character and contributed in one way or another to the dismantling of the societal structure, the fragmentation and dispossession of the Iraqi self, and the dissolution of national identity. There is what can be called "Americanization", a term commonly used in the field of cultural studies, and refers to the ideological line that seeks to mold peoples and societies in a mold designed by American policy in accordance with its interests and goals.

تمثّلات الصراع القيمي في الرواية العراقية: قراءة في رواية (الحلوة) لوارد بدر السالم

م.د. همام ياسين شكر، م.م. صهيب مجيد ناجي*

دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية، رئاسة ديوان الوقف السني، العراق

* sohaib.m.naji@gmail.com

الكلمات المفتاحية | الصراع، القيم، الرواية العراقية، العولمة، الانسلاخ.

<https://doi.org/10.51345/v33i4.632.g308>

ملخص البحث:

شهدت الساحة الثقافية العراقية - بعد أن هبَّت رياح التغيير في العام 2003م - انفتاحاً وربما انفلاتاً على كافة المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية، واستجدّت قيمٌ وعاداتٌ جديدةٌ دخلت في صراع مع القيم والعادات الثابتة، إذ تبع التغيير السياسي مساع جادة لعولمة نموذج معين من القيم، يهدف إلى تنميط الذات العراقية وتشكيلها وفق خطّ إيديولوجي رسمته السياسات الغربية الساعية إلى عولمة قيمها وأفكارها. واتكأ على ما سبق تسعى هذه الدراسة إلى رصد الصراعات القيمية القائمة على الساحة العراقية لاسيما تلك التي أخذت طابعاً دينياً واجتماعياً، وساهمت بشكل أو بآخر في تفكيك البنية المجتمعية، وتشظي واستلاب الذات العراقية، وذوبان الهوية الوطنية. ثمة ما يمكن تسميته بـ (العولمة)، وهو مصطلح شاع في حقل الدراسات الثقافية، ويشير إلى الخطّ الإيديولوجي الساعي إلى قلبية الشعوب والمجتمعات بقلب صمّته السياسة الغربية بما يتفق مع مصالحها وأهدافها.

المقدمة:

إنّ من يقين القول أنّ لكل مجتمع قيمه الخاصة، المستمدة من مرجعياته الدينية والوطنية والاجتماعية، لكنّ ثمة أحداث قد تطرأ فتجبر ذلك المجتمع -طوعاً أو كرها- على الانسلاخ من قيمه وعاداته، ولعلّ من أهم وأخطر تلك الأحداث ما يشهده العالم اليوم من محاولات جادة لتنميط الشعوب بقيم وعادات تتفق مع النمط الثقافي الذي فصلته الإمبريالية الغربية. بما يتفق مع ميولها الاستعمارية، إذ تخوض الدول والمجتمعات اليوم فضلاً عن الصراعات الأمنية المستفحلة، صراعات من نوع آخر قد تكون تداعياتها أخطر من سابقتها، كونها تعمل أساساً على القيم والأفكار، فتزيّف الوعي وتضلله، وتحقن الأفراد بأفكار مزيفة، وقيم دخيلة، ثمّ تقدمها على أنّها مُسلّمات لا تقبل النقاش.

تضمن هذه المُسلّمات للسلطة - أيّاً كان شكلها - بقاءها وديمومتها، بمعنى آخر تسعى القوى المسيطرة عبر الاشتغال الإيديولوجي إلى رسم المسار الفكري والقيمي الذي يخدمها ويحقق غاياتها فقط، دون أي

اعتبار للمسارات الأخرى، وبغض النظر عن كون المسار الفكري المرسوم هو مسار معتدل ومستقيم أو مسار منحرف.

اتكاءً على ما سبق تسعى هذه الدراسة - عبر نموذجها الروائي - إلى رصد الصراعات القيمية القائمة على الساحة العراقية لاسيما تلك التي أخذت طابعاً دينياً واجتماعياً، وساهمت بشكل أو بآخر في تفكيك البنية المجتمعية، وتشظي واستلاب الذات العراقية، وذوبان الهوية الوطنية. ثمة ما يمكن تسميته بـ (العولمة)، وهو مصطلح شاع في حقل الدراسات الثقافية، ويشير إلى الخطّ الإيديولوجي الساعي إلى قبولية الشعوب والمجتمعات بقلب صممتها السياسية الأمريكية بما يتفق مع مصالحها وأهدافها.

الإيديولوجيا وعولمة القيم (أمركة القيم)

ليس ثمة شك في أنّ العولمة مشوبة بالتحيّز الفكري أو التوظيف السياسي، وإنّ من السذاجة -بعد كل حالات التشظي القيمي والهوياتي، والاستلاب الفكري والسياسي والديني- تبرئها من الاشتغال الإيديولوجي، أو اعتبارها نتيجة طبيعية ومنطقية للتطور العلمي والانفتاح المعرفي فحسب، دون أي شوائب سلطوية أو هيمنة فكرية، وإن كانت في جهة من جهاتها -كما لدى البعض- ترتبط بجوانب علمية وموضوعية، لكنها مع ذلك وظفت العلوم والتكنولوجيا لغايات لم يُفصح عنها صراحة وإنّما بدأت تطفو على السطح، وينكشف عنها سترها، وتظهر جليلة في صور التماهي مع النموذج الغربي في القيم والأفكار وحتى السلوك. بما في ذلك "الملبس والمأكل والمفردات اللغوية ومعايير الجمال، وطرائق التسلية... وهذا ما برر النظر إلى العولمة الثقافية على أنّها غزو يحمل خطاباً ثقافياً لشعوب العالم مفاده، لا مجال للتعد الثقافي"⁽¹⁾

فلا يخفى على أحد ما شهدته وتشهده المجتمعات اليوم من حرب فكرية تستهدف منظومة الأخلاق والقيم، فثمة من يسعى ليلاً ونهاراً إلى عولمة قيمه وتذويب الهوية الإسلامية ووآد القيم الدينية السمحة؛ بهدف "تعميم أنموذج من السير والسلوك، وأنماط من الأخلاق والآداب، وأساليب من العيش والتدبير، تتوافق مع الثقافة الغربية، وتنسجم مع ميول المستعمرين، لتغزو بها ثقافات مجتمعات أخرى، وهذا لا يخلو من توجه استعماري جديد، في احتلال العقل والتفكير"⁽²⁾. وقرّيب من هذا ما أشار إليه (د. المهدي المنجرة) من "أنّ العالم يعيش اليوم حربَ قيمٍ، ومن يستطيع أن يفرض قيمه يكن الأقوى حضارياً"⁽³⁾. ولا أدل على ذلك من الواقع الاجتماعي اليوم وقد تفكك دينياً وثقافياً، واندثرت قيمه الفاضلة وشاعت فيه القيم الدخيلة والعادات السيئة.

ولعلّ مما يزيد الأمر خطورة هو أن القيم الموعّمة تتلقاها المجتمعات على أنّها هي القيم الحق، وأنّها الانفتاح والتحرّر وما دونها التعصب والانغلاق، تُخاطب هذه القيمُ عواطفَ الشباب قبل عقولهم بدعاوى زائفة، فترسم لهم حاضراً وردياً وغداً طوباويا لا يتحقق الا بنسف الثوابت القيمة والاستعاضة عنها بقيم جديدة تتلاءم مع التطور والتقدم، لكنّها في الحقيقة قيم تسعى إلى تفتيت الهوية الاسلامية وتشظيها، إذ إنّ من بين أبحاث الدعاوى الإيديولوجية هو أنّ "الإسلام والحداثة ظاهرتين متنافرتين، وعليه فإنّ تحديث البلدان الإسلامية لم يكن ممكناً من دون القضاء على الإسلام أو تدميره بوصفه ديناً وإيديولوجيا ومبادئ سياسية"⁽⁴⁾.

على الصعيد العراقي سعت الإيديولوجيا الأمريكية بدايةً إلى فرض سطوتها وسيطرتها الثقافية عبر الاتكاء على مسميات قيمة عدة، منها على سبيل المثال الحرية والديموقراطية، فبدعوى الحرية والديموقراطية استهدفت المجتمع في أخلاقه وقيمه، إلى الحدّ الذي تفكّك فيه ذلك المجتمع وغيره من المجتمعات المتناسكة، وهذا من شأنه أن يصرف أفراد تلك المجتمعات عن التفكير بأكبر أمورها المصيرية عبر تخدير الوعي وتغييبه، بمعنى آخر يهدف هذا الاستهداف -بحسب (المسيري)- إلى "ضرب الخصوصيات القومية والمرجعيات الاخلاقية حتى يفقد الجميع أية خصوصية وأية منظومة قيمة"⁽⁵⁾.

سؤال الهوية بين الثابت القيمي وإشكالية التحرر

عانت المجتمعات العربية -لاسيما العراقية- منذ فترة من أزمة الهوية، حتى غدا سؤال الهوية من أكثر الأسئلة إلحاحاً وطرقاً للفكر، لاسيما في المجتمعات التي ترهلا فكريا وتعددا قوميا ومذهبيا، إذ بات الفرد العراقي منشغلا بسؤال من أنا؟ ما انتمائي في ظلّ الأروام الطائفية والقومية المستشرية؟ من أنا في مقابل الآخر العربي، والآخر الغربي؟ هل ثمة هوية وطنية خالصة؟ أم إنّ البحث عن مثل هذه الهوية هو ضرب من العبث؟ هذه الأسئلة وغيرها أدت إلى تعميق أزمة الهوية، وإفراز خطابات إيديولوجية تبتغي إعادة تشكيل الهوية، على وفق مقاساتها، وتماشياً مع مصالحها، تقول د. ماجدة حمود: "بات اليوم سؤال (من أنا) أكثر إلحاحاً من أي وقت... إذ بدأ الروائي يخاف أن يُضيع الإنسان العربي ذاته فتضيع خصوصيته وهويته"⁽⁶⁾.

تطرح رواية (الحلوة) ذات السؤال، وترسم -سردياً- انشطار الذات العراقية وتشظيها وسط واقع مأزوم ومُتحمٍ بالصرعات القيميّة، فقد خلّف الاحتلال الأمريكي للعراق ذواتا انسلخت من هويتها وقيمتها وتماهت مع الآخر وتبنت قيمه وأفكاره، بل وبدأت بمحاولات جادة لترسيخها وتعميمها على

المجتمع كله، متوسلة بخطابٍ إشهاري منمق، يخترق المحذور ويعزف على أوتار جريئة وحساسة، قد توقع بشباكها محدودي الوعي والتفكير.

تعالج الرواية ببطلها الإشكالي (مارك) قضية تذويب الهوية العراقية في مقابل تعميم النموذج الأمريكي دينيا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا. يمثل (مارك) أحد طرفي الصراع القيمي بوصفه رمزا للنموذج الأمريكي، وتمثل (ريحانة) وأمها (بديعة) الطرف الثاني بوصفهما ممثلتين عن النموذج العراقي المتمسك بالقيم والهوية، والرافض لمحاولات التنميط.

الهوية الدينية (الصراع القيمي الديني)

استفحل -بعد الحرب الأمريكية على العراق- صراعٌ دينيٌّ غيرٌ من الخارطة القيميّة الدينية للبلاد، وأفرز خطابات تخترق المحذور وتحاول أن تقزّم بعض الأديان، في مقابل الانتصار لأخرى، أو ربما تطرح بجرأة أكبر قضية الانسلاخ من الدين والاعتناق من قيده -كما يظن البعض- إلى رؤية فكرية إلحادية تراها أكثر تحررا من اعتناق دين معين.

دينياً دخل الطرفان (مارك وبديعة) في صراع قيمي تارة بين الإسلام والمسيحية، وتارة أخرى بين الدين والإلحاد، أو بين الدين واللا دين، فمن الرواية الملفوظات الآتية:

(يروى لي عن أمريكا الواسعة... ويجدثني كيف صار مسيحياً لأنه أراد أن يتخلص من عقدة الماضي المكبلة له {إسلامكم صحراوي لا يستقيم مع الحضارة الجديدة}(7).

(قلتَ إنك أصبحت مسيحياً.. يعني أنت مؤمن)-: (هذا برستيج قديم فعلته لأتخلص من عقدكم الكثيرة وأعيش حياة الآخر بحرية مفتوحة فالمسيحية منفتحة إلى آخر مدى، عكس الإسلام الصحراوي المخيف المنقبض على روحه بسيف صدى قديم)(8).

(أنا كائن بلا حلال ولا حرام. ديني لي وحدي أمارسه مثلما أشاء؛ فالإسلام والمسيحية بالنسبة لي ليسا هما الحل... أريد دينا لوحدي أسرق به صبيتي الحلوة ريحانة وأطير بها عبر البحار والمطارات)(9) واحدة من أبرز الحيل الإيديولوجية -كما أسلفنا- هي نعت الدين الإسلامي بالتخلف والتقوقع، والابتعاد عن اللحاق بركب الحداثة والحضارة، ولأنّ الأمر كذلك لا بدّ من اعتناق دين جديد، وقيم جديدة تواكب الجديد والمستحدث، وهو ما فعله (مارك) -العائد بصفة مترجم مع القوات الأمريكية- حين قفز إلى هوية دينية جديدة، لظنه أنّها إحدى الوسائل التي تُحقّق لذاته التحرر والانفتاح.

تعالج الرواية -رمزياً- حيل الآخر في وأد القيم الدينية الثابتة والاستعاضة عنها بقيم أخرى، بواسطة خطاب يتأرجح بين الترغيب والترهيب، ويحاول ترويض المتلقي وزعزعة دفاعاته، ومن ثمّ تطويعه لقبول

قيم وأفكار الآخر، ولا يكون هذا إلا بصناعة خطاب حجاجي يضمن للمرسل التأثير في وعي المستقبل بمعنى آخر لا بد من تقديم حجج تؤدي "فعل دفع من جهة وفعل إبعاد من جهة أخرى، أو تفريغ وملء؛ تفريغ الذهن من كل الاقتناعات السابقة وملئه بما يراد من حجج وإثباتات" (10).

إن تفريغ الذهن من قيمه وعاداته الثابتة، ومحاولة ملئها بقيم وعادات جديدة، تتطلب من المرسل ترهيب المتلقي، ومن ثم ترغيبه بعلامات ووعود طوباوية، فـ (صحراوي، مخيف، منقبض، لا يستقيم، ليس حلاً) في مقابل (حياة، حرية، مفتوحة، مثلما أشاء، أطيّر، بحار، مطارات) تضع أمام المتلقي ما يشبه المقارنة بين الدين واللا دين، فإذا كان الدين صحراويا فإن اللا دين حياة وحضارة وتمدن، وإذا كان اللا دين مخيفاً، فإن اللا دين أمن وسلام، وإذا كان الدين منقبضاً، فإن اللا دين حرية وانفتاح. وفي العلامات الأربع الأخرى (مثلما أشاء، أطيّر، البحار، المطارات) ضمانات حجاجية، تضمن العلامة الأولى (مثلما أشاء) للمتلقي إمكانية اتخاذ قراراته وأفكاره، وممارسة نشاطاته متى ما يشاء، وكيفما يشاء، دون قيد أو شرط من دين أو غيره، وتفتح الثانية (أطيّر) له الآفاق للتخليق والعلو والرفعة، أما الثالثة والرابعة (البحار والمطارات)، فتصور له حجم الاتساع والانفتاح والحرية، وكل هذا بمزلة حجج يسوقها المرسل لإقناع المتلقي بمضامين الرسالة، تغلف هذه الحجج بغلاف سينوغرافي يضمن لها فاعلية التأثير في المتلقي فـ "(السينوغرافيا) مما به يأسر المتكلم خيال المخاطب ويُحقق بفضل فعل الإقناع" (11).

ثم صراعات أخرى أخذت طابعاً دينياً، أراد المرسل/مارك بواسطتها قولبة المستقبل بقالب لا ديني يشرعن رؤيته من الفلسفة التي يتكئ عليها، ويعمد إلى تقزيم الدين والانعتاق من قيده، تارة بإشاعة قاموس لغوي يسم الدين بالانغلاق والجمود والوحشية، وتارة أخرى بالدعوة إلى الإلحاد: -أنت ملحد يا خال.

-الإلحاد رؤية لدين لم يظهر كلياً بعد يا صغيري (12).

إن القول بأن الإلحاد (رؤية لدين لم يظهر كلياً بعد) هو علامة تُشعر المتلقي بأنه إزاء دين جديد له أهداف وتطلعات ورؤى مستقبلية، أي إن الأمر أشبه بالشرعة لزوع فكري لا يعترف بوجود إله، تبعاً لما تمده به الفلسفات المادية. ثم إن في جملة: (لم يظهر كلياً بعد) طمأننة للمتلقي وتبرير في الوقت ذاته، ففيها خطاب يُبرر هفوات الإلحاد وانتكاساته بأنه دين لم يكتمل بعد، فهو في طريقه إلى الكمال والاتساع، ومثل هذا الخطاب يُطمئن المتلقي ويدعوه إلى أن يبطأ بقدميه هذه الأرض ذات النزعة المادية الصارمة، والطمأننة في إحدى صورها برهنة (13).

الهوية الاجتماعية (الصراع القيمي الاجتماعي)

دخلت العادات والقيم الاجتماعية بعد الحرب الأمريكية على العراق عام 2003م مرحلة جديدة، عانت فيها ما عانت من التشطي والتذويب، فلم تقوى الذات العراقية على المحافظة على قيمها وعاداتها الاجتماعية أمام الانفتاح والانفلات، ومحاولات التنميط المتعمد، ثمة وافد جديد من العادات والقيم بدأ يمارس سلطة ظاهرة ومضمرة لفرض نمط قيمي وثقافي جديد يقف على الضد من النمط الأصيل.

وقد مثلت الرواية لهذا الصراع بواسطة ثنائية (القرية/المدينة)، رمزت في الأولى إلى المجتمع المحافظ على قيمه وعاداته، ورمزت في الثانية إلى المجتمع المنسلخ من قيمه وعاداته، وقد مثلت القرية (بديعة)، ومثل المدينة أحوها (مارك)، في صورة واضحة وجلية على عمق التأثير القيمي الذي ضرب المجتمع العراقي حتى جعل الأخوين المولودين في نفس البقعة ونفس العائلة يتقلد كل منهما بتقاليد وقيم تختلف عن الآخر.

إنَّ (القرية) كما هو معلوم لها عاداتها وتقاليدها التي تُشكّل قيماً ثابتة لم تتأثر في الغالب بالتنميط القيمي والثقافي، فلم يُلوث صفاءها كدر، أو يُعكر سكينتها صخب، لم تكن كالمدينة التي انكشفت وتعرّت وأصبحت أرضاً خصبة لمحاولات العولمة الثقافية والقيمية، المتكئة على إيديولوجية رأسمالية، لذلك وظفتها الرواية للإشارة إلى الواقع العراقي قبل عام 2003م:

- متى نزر القرية؟

ابتسمت المرأة وهي تحنو عليها:

- متى ما تشائين.

- كرهت بغداد.. كل شيء فيها أصبح قذراً⁽¹⁴⁾.

إنَّ كره (بغداد) ليس كرهها للمكان، وإنما هو كره لمن عبث بموجوداته وبدّل وغير قيمه وعاداته وأطباعه، ومارس عليه سلطة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية أجبرته على التقول بقال ذي أبعاد رأسمالية، لا مكان فيها الا للمصلحة، وعندما لا يُنظر إلى الحياة إلا من جهة المصلحة الذاتية فقط، فإنَّ هذا يعني عدم مراعاة أي قيمة سوى القيمة المادية (النفعية)، وهذا مدعاة للذات إلى رفض هذه الصيغة من الحياة، والاستعاضة عنها بأخرى هي في نظر الذات الرافضة أقوم وأفضل:

تنحسر قليلاً:

- كنا فقراء لكنّ الحياة كانت بسيطة.. كنا متعفين بأخلاقنا وعزة أنفسنا وكرمنا.

وكما لو تقول حكمة:

- كنا متساوين في كل شيء⁽¹⁵⁾.

وفي ملفوظين آخرين :

نظرت لي بعينين صافيتين وجهيلتين:

- هذه التفاصيل هي الحياة الجميلة التي كانت يا أخي.. بريئة وحلوة وصادقة⁽¹⁶⁾.

(أفحمني الجو الأليف وغمرني إحساس بأنني بين أهلي الحقيقيين الذين أفنقدهم منذ زمن طويل... القرية التي أعود إليها تشدني منذ أول لحظة فيكتسحني شعور بالجمال مثلما يأتيني شعور بأن بغداد مدينة مشوهة لا روح فيها ولا حياة)⁽¹⁷⁾.

تشكّل القرية برمزيتهما العالية على الماضي مكاناً أليفاً للشخصية، ترى فيه ذاتها، قيمها وعاداتها، بعكس المدينة التي سلبتها أمنها وألفتها وهويتها الاجتماعية والدينية. إنّ بعث الماضي هو نفى للحاضر، وهو أيضاً شكلٌ من أشكال المقاومة الذاتية، لاسيما وأنّ الآخر/مارك يسعى جادا لتضليل الوعي بتبريرات إيديولوجية، بغية فرض نمط قيمي جديد، لذلك يعد تمسك الذات بالقرية - التي لم تفسدها قيم وعادات المدينة الوافدة- شكل من أشكال الانتماء والمحافظة على القيم والعادات الثابتة، أمام الدعوات الإيديولوجية للانسلاخ من تلك القيم، يقول (مارك/أمريكا):

(لا أريد أن أعود إلى طارق القروي فقد غادرت طارقي ولا أحفل به)⁽¹⁸⁾. (أنا تغيرت كثيراً ولم تعد القرية تعني شيئاً بالنسبة لي.. أنا أمريكي يا بدبعة)⁽¹⁹⁾. (يؤلني؛ حتى لمجرد التفكير؛ أن أعود إلى القرية والنواميس التي يمكن أن تحد من طاقتي وطموحاتي وتحولني إلى كائن مغفل لا صوت لي ولا رأي، فأنا لا أعرف أسير وراء قطع... قلت مرة لبديعة: حينما أفكر بالعودة إلى القرية كأنني أقدم على الانتحار)⁽²⁰⁾.

الملفوظات أعلاه تلفت النظر إلى فاعلية الإيديولوجية الأمريكية في ترويضها للشعوب المحتلة، بالاشتغال على استعمار الانسان قبل المكان، فقد أدرك المستعمرون "أنّ تثبيت وجودهم في بلد غريب، لن يكون إلا بإلغاء هوية الشرقي، أي خصوصيته، التي يستمدّها من الفضاء المكاني، أي من ثقافته التي تربي عليها"⁽²¹⁾، لذلك لا بُدّ من أمركة الهوية عبر ثقافة يُسميها (حسن شحاتة) بـ(ثقافة الاختراق)⁽²²⁾.

ثمّ إن في الملفوظات سلطة تُمارس عبر استمالة المستقبل وتخويفه بأن في العودة إلى القيم والعادات السابقة قيد وسجن وعبودية، ومصادرة للرأي وللحرية، في حين أنّ في تبني قيم وعادات الآخر ضمان للحرية في الفكر وفي السلوك، فضلا عن تحقيق الطموحات والأحلام.

الهوية الجسدية (الصراع القيمي الجسدي)

ثمّة أصوات شاعت بعد الحرب الأمريكية للعراق تنادي بالتححرر الجسدي والجنسي، مبررة ذلك بالحرية والانعتاق من أسر العادات والتقاليد البالية بزعمهم، بعد فسحة الحرية الوهمية المتحققة، ولعل من أهم ما طُرِح على الساحة هو الدعاوى الإيديولوجية لتحرير الجسد النسوي - في المأكل والملبس والسلوك - من قبضة القيود الدينية والاجتماعية والثقافية المفروضة.

وقد عاجلت الرواية هذه القضية بواسطة شخصية (سراب) كاشفةً النسق الثقافي المتحكم بذلك الجسد من جهة، وملفتة النظر -رمزياً- إلى الصراع القيمي والثقافي الذي أورثته السياسة الأمريكية للمجتمعات الشرقية من جهة أخرى، وما علقَ بذلك دعاوى إيديولوجية تستهدف الدين الاسلامي، وتنتعنه بأنه دين يغيب جسد المرأة وجمالها بالحجاب. فمن الرواية الحوار الاتي بين (سراب) و(ريحانة):

- اخلي الحجاب كأنك في الدائرة مع عمك أم عادل وتلك المنقبة المشعوذة.

تشعر بضيق أول فتد بجفاء:

- خليني هكذا.

- لا حجاب في مناسبة ميلادي.. الحجاب يشوه الحلوات يا عيوني.

ثمّة من استغل موضوع الحجاب وألبسه لبوساً إيديولوجياً وقَدّمه على أنه رمز اسلامي لسلطة ذكورية متسلطة ومتخلفة، وثمّة من راه شأن ثقافي لا علاقة له بالفروض والواجبات الدينية، وليس ثمّة توصيات ربانية بذلك، وانما هي قضايا تواضعت عليها الثقافة وترسخت في الاوساط الاجتماعية، وهو لدى آخرين يحمل قيمةً رمزيةً كبيرةً "ترمز لمجموعة من القيم والأخلاق"⁽²³⁾، لذلك لا يخلو الملفوظ الروائي من بُعدٍ إيديولوجي يشغل على خلخلة المنظومة القيمية، عن طريق اللعب على ثنائية الحرية والاضطهاد. في رواية (الحلوة) تُشكّل الصور الروائية بطريقة فنية متقنة، لتفلت النظر إلى الحيل الإيديولوجية المسخرة خصيصاً لإحداث التأثير المطلوب في المتلقي، نظراً لما تُثيره من عواطف وانفعالات، فهي تجعل المتلقي حاضر الذهن إزاء ما يُطرح، لأنها ببساطة عالم دلالي مملوء بكل ما من شأنه أن يستميل المتلقي، ف"الصورة تُضفي على الجمود الفكري حركةً وحيويةً وتبعثُ النشاط عبر المخيلة، فتثير الانفعال، وتدعو المتلقي إلى الانغماس في خضم مشهد الصورة، فيستجلي تفاصيلها وأجزائها، وما تبطنه من رموز فتزيد به العاطفة استثارة، وتتغلغل في الشعور الباطن فترسخ في الوعي، ثم تنعكس سلوكاً فكرياً وعملاً"⁽²⁴⁾. يقول (ستيفين أولمان): "تعدُّ الصور من بين أدوات الخطاب الانفعالي الأكثر قوة"⁽²⁵⁾.

وكذلك العلامات اللسانية لا تستعمل اعتباطاً، وإنما تُحمّل بمحولات دلالية وإيديولوجية، تارةً ظاهرة وتارةً أخرى مضمرة. تكمن غاية هذه العلامات في ترويض المتلقي لاقتناء فكرة ما، مُتبناة من قبل منظومة سياسية أو اجتماعية ما، أو ربما للانسلاخ من قيمة أو عادة ثابتة، فبين اللغة والإيديولوجيا علاقة وثيقة.

كلاهما، الصور الروائية والعلامات اللسانية مسخرٌ لتعرية وكشف الحيل الإيديولوجية الموظفة من قبل الآخر لتجريد الذات العراقية من قيمها وأخلاقها الثابتة، لذلك يُقدّم الحجاب على أنه (يشوه الحلوات) (ويقتل روح الصباح)⁽²⁶⁾، وأن المرأة (مقمطة بالحجاب)⁽²⁷⁾، وجهها مدفون (نصفه في الحجاب)⁽²⁸⁾، وتقدم المنقبة على أنها (مشعوذة).

صورة أخرى قد يكون البعدُ الإيديولوجي فيها فاقعاً: (هذه أنا. كنت المدللة الوحيدة. أظير مثل الحمامة. تنورتي قصيرة وقميصي مفتوح للهواء النقي... لبستُ الحجاب مغصوبة به كما فرضته مليشيات الدين. هذه ريتا صديقتي المسيحية ارتدت الحجاب مثلنا. وكانت تلعن الحظ الذي حوّل العباد إلى قروود بالحجاب. يبدو أننا قروود الله في هذا الوطن الذي استولت عليه قردة الدين)⁽²⁹⁾.

تتحرك الصورة وفق مسار سردي يُقيم تضاداً دلالياً بين صورتين، تُزيّن الأولى وتُقبّح الثانية، كل صفة تستدعي التي هي ضدها، سواءً أكانت مكتوبة في النص أم لم تكن، فإذا كانت المرأة مدللة في التبرج، فإنّها ستكون في الحجاب مغصوبة شقية، وإذا كانت في التبرج تستقبل الهواء النقي، فإنّها في الحجاب تستقبل الهواء الملوّث المشوب، وإذا كانت في التبرج ملاكاً فإنّها في الحجاب قرد. إنّ هذه الصراعات القيمة التي تمارس على الجسد هي في الحقيقة جزء من الصراع العالمي الدائر على الدين الاسلامي خاصة، وهو أيضاً من إفرازات وتداعيات النظام الرأسمالي الذي لا يسعى إلى تحرير المرأة وإنما إلى تسليعها (أي جعلها سلعة)، إذ لم يتردد الفكر الغربي -وهو يسعى إلى تحقيق مصالحه وأهدافه "في التضحية بكثير من الأخلاقيات والمثل المتعلقة بكرامة الآدمي وحرية"⁽³⁰⁾

وقد لفتت الرواية النظرَ عبر شخصية (سراب) أيضاً إلى قضية الذكورة في المجتمعات الشرقية وهي من القضايا التي استفحلت بعد عام 2003م، إذا رافق التغيير السياسي كما أسلفنا تغيير في القيم والأخلاق فخرج إلى السطح ما كان مضمراً في القاع من قضايا تخص النسوية والقوامة الذكورية، فعلاً على إثر ذلك صوت نسويّ يحارب ما يُسمى بالمجتمعات الذكورية التي تجعل من المرأة تابعا للرجل. ويأتي هذا ضمن استراتيجية إيديولوجية مخطط لها تسعى إلى ضرب القيم الأخلاقية للمرأة.

روائياً تبدو (سراب) مثالا للمرأة المسلحة من ثقافتها الدينية والاجتماعية، والداعية في الوقت نفسه إلى تقزيم هذه الثقافة بكافة أشكالها، ففي مجتمع شرقي يُوصَف بأنه ذكوري تُحدُّ الذات الأنثوية نفسها مضطهدة لا تقوى على الصمود فلا بُدَّ لها من رجل يتولى أمرها وإلا ظلت سائبة، لذلك هي أرادت أن تتحرَّر من عقدة كونها أنثى فصَبَّت غضبها على الرجال، ومن ثمَّ مارست دور الرجل في أمور حساسة وجريئة، وقد تمَّ اختيار الزوج الجنسي دون غيره؛ لأنَّه من أكثر الأمور التي قد تميِّز الرجل عن المرأة. (سراب) أخذت دور الفاعل/الرجل ومارسته مع ريجانة بعد استدراجها، ومن ثمَّ ضربت بالقيم الثابتة عرض الحائط، بلسان حال يقول: "إنَّ حالات الإحفاف في المجتمع مؤسسة على معايير محددة اجتماعياً لا أساس ثابت لها في الجسد"⁽³¹⁾، من بين هذه الحالات التسويغ الإيديولوجي لتفوق الرجال على النساء بيولوجياً، تقول سراب: (أكره الرجال. الرجل قضيب يابس لا روح فيه والمرأة حديقة عطرة. الرجل محراث والمرأة تنور هب. كلهم أقل شأناً من المرأة لكن الله فضلهم علينا بشكل غير معقول. المرأة للمرأة. جسد المرأة)⁽³²⁾. وتقول في موضع آخر: (الرجال غادرون.. خونة.. لا يفكرون الا بمؤخرات النساء.. كلهم على نفس الشاكلة... كلهم كلاب.. الغرباء والاقارب.. الرجل عبارة عن قضيب لا أكثر)⁽³³⁾.

إنَّ كلام الشخصية هذا وإنَّ أوحى بطريقة ما أنَّه كان بسبب موقف مع رجلٍ معين، إلا أنَّ التركيز على هذا الأمر مع إشاعة علاماتٍ لسانية محددة، يُشير الى أنَّ الشخصية تعيش صراعاً أكبر من مجرد موقف معين، وإنما صراعها الأكبر هو صراع مع قيم مجتمعية صارت ثابتة تحت تأثير إيديولوجيا دينية أو سياسية ما، فـ "الخصائص البدنية والفكرية والمهمات الموكولة للجنس خاضعة لاختيارات ثقافية واجتماعية، وليس لميول طبيعي يُحدد مصير المرأة والرجل بيولوجياً، ولهذا فإنَّ وضعية المرأة والرجل مبنية اجتماعياً وليست في الحالة الجسدية، وهو ما تؤكده سيمون دي بوفوار: لا نولد نساءً، بل نصبح كذلك"⁽³⁴⁾.

من أجل هذا تسعى (سراب) إلى خلخلة الثابت القيمي وخرق المحظور؛ للوصول الى ذات نسوية متحررة من القيود الإيديولوجية، التي ترسَّخت في بنية المجتمع، لاسيما فيما يتعلق بالجسد؛ انطلاقاً من "أنَّ الجسد مشكَّل بطريقة ما ومقيَّد؛ بل مختلَق من قبل المجتمع"⁽³⁵⁾. وقريب من هذا ما يسميه (د. عبد الوهاب المسيري) بالواحدية الإمبريالية الصلبة، حيث تتمركز المرأة حول ذاتها وتدخل في صراعٍ أزلٍ مع الآخر/الرجل استناداً إلى رؤيةٍ ما بعد حداثة ترفض الهيمنة الذكورية وتُفكِّكها، "وتصل هذه

الرؤية قمتها (أو هوئها) حينما تُقرر الأثنى أن تدبر ظهرها للآخر/الذكر تماماً، فهي مرجعية ذاتها وموضع الحلول ولا تشير إلا إلى ذاتها⁽³⁶⁾.

صفوة القول: إنَّ مجمل المشكلات القيمية التي طفت على السطح بعد التغيير السياسي عام 2003م قد اشتغلت على تجريد الذات العراقية من قيمها وعادتها الثابتة، تمهيدا لتشكيل نموذج أو نمط قيمي يتفق مع النموذج الأمريكي، لأنَّه متى ما تم ذلك فإنه يعني استلاب الذات وتفكيكها، بما يتفق مع مصالحه وحلمه بالهيمنة والإخضاع؛ لأنَّ استلاب الذات أو تشطُّبها مما يُفقد الهوية، تلك الهوية التي يعمل الآخر للحيلولة دون تشكُّلها، كي يظل العراقيُّ مشتتاً ضائعاً، إلى الحدِّ الذي يفقد فيه أيَّ شكلٍ من أشكال الانتماء للوطن، ولعلَّ (مارك) -بطل الرواية- خيرُ مثالٍ على الذاتِ المتشطِّبةِ الفاقدةِ هويةٍ وطنيةٍ حقيقيةٍ، والمكتسبةِ هويةٍ هشَّةٍ، اصططنعتها الإدارة الأمريكية مع ما يتفق مع منظومتها الفكرية، التي تظهر للعلن بصفتها أفكاراً تسعى لتحرير شعوب المنطقة من الظلم والتخلف، وتخفي رعايتها لتأسيس هويات فئوية فرعية، تُبقي الذات في حالة اغتراب عن الوطن الأم، حتى وإنَّ شعرت تلك الذاتُ بشعور الانتماء للهوية الجديدة، أيَّا كانت تلك الهوية، إذ إنَّ هذا الشعور لا يعدو أن يكون زائفاً، ودليل هذا غربةُ (مارك) وتشطُّبه.

الخاتمة:

فيما تقدم دراسة وصفية نقدية لتمثيلات الصراع القيمي في الرواية العراقية ممثلةً بنموذجٍ روائيٍّ لخص الكاتبُ بواسطته تداعيات رياح التغيير التي هبَّت في الربع الأول من العام 2003م وما تبعه من أعوام، وقد لمس الباحث النتائج الآتية:

- 1- عمق الاشتغال الإيديولوجي وسعته في قضية عولمة القيم الثقافية وتنميط الشعوب بنموذج ثقافي تغلب عليه الصبغة الأمريكية.
- 2- ثمة نزوع ذاتي -ظهر عند بعض الشخصيات الروائية- نحو التحرر والانسلاخ من القيم الدينية والاجتماعية، دون مراعاة للثوابت القيمية أو الخطوط الثقافية الحمراء، وهو نتيجة طبيعية للجرعات الإيديولوجية التي تلقاها المجتمع بعد الحرب الأمريكية.
- 3- كشف الصراع القيمي الديني مدى انتهازية وخبث الإيديولوجيا الأمريكية في ضرب الأنساق الدينية الثابتة؛ بغية تذويب وتفتيت الهوية الدينية الإسلامية والاستعاضة عنها بهويات دينية أخرى تتفق مع مصالحها وأهدافها. وكشف الصراعين الاجتماعي والجسدي أيضاً عن قصيدة واضحة

للتماهي مع النموذج الأمريكي المتحرر إلى حد بعيد، لاسيما في ما يتعلق بالمثلثية ودعاوى المجتمعات الذكورية والكبت الأنثوي.

4- روائياً بدا أن هناك نزوعاً قصدياً أيضاً نحو قولبة المتلقي عبر سردٍ متقنٍ إيديولوجياً - بقلب متحرر ومنسلخ مما تصفه الرواية بالقيود الدينية، فليس ثمة حلال ولا حرام أو دين سماوي، وإنما هي حرية دينية واجتماعية وجنسية، ولكل فرد أن يقيم دينه كما يشاء، وذلك عماد الرؤية الماركسية التي تدعو إلى الانعتاق من سلطة الدين.

المصادر:

1. استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004م.
2. إشكالية الأنا والآخر: د. ماجدة حمود، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013م.
3. الإشهار والمجتمع: الإشهار والمجتمع: برنار كاتولا، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط1، 2012م.
4. تصور الآخر، تمييز مأسس وعنصرية ثقافية: مسعود كمال، مجلة الاستغراب (الذاتية والغريبة)، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ع10، 2018.
5. تمثيلات الحجاب بين الدين والإيديولوجيا: د. حنيد عبد الرحمن، حويلات جامعة الجزائر، ع33، ج2، 2019م.
6. الجسد والنظرية الاجتماعية: كرس شلنج، تر: منى البحر، نجيب الحصادي، دار العين للنشر، القاهرة، ط1، 2009م.
7. الحداثة وما بعد الحداثة: د. عبد الوهاب المسيري، د. فتحي التريكي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003م.
8. الذات والآخر في الشرق والغرب (صور ودلالات وإشكاليات): د. حسن شحاتة، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2008م.
9. سوسيولوجيا الجسد: دافيد لو بروتون، تر: عباد أبال، إدريس المحمدي، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014م.
10. صورة الآخر الحضاري (نقد الاستعلاء في المركزية الغربية): عامر عبد زيد الوائلي، مجلة الاستغراب (الذاتية والغريبة)، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ع10، 2018م.
11. الصورة بين الدلالة والتأويل: معروف محمد، أطروحة دكتوراه، جامعة الجليلي لبياس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2017-2018م، 64.
12. الصورة في الرواية: ستيفن أولمان، تر: رضوان العيادي، محمد مشبال، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016م، 293.
13. عولمة العولمة، من أجل التنوع الحضاري: د. المهدي المنجرة، منشورات الزمن، الرباط، ط2، 2011م.
14. العولمة والتنميط الثقافي في السرديات المرئية، دراسة تحليلية لمضامين الدراما المرئية الغربية: أ.م.د محمد صبري صالح، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ع27، 2017م.
15. في تحليل الخطاب، البلاغة وتحليل الخطاب: د. حاتم عبيد، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013م.
16. قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى: د. عبد الوهاب المسيري، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010م.
17. مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية: أ.د منى أبو الفضل، أ.د طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة 2009م.

الهوامش:

- (1) العولمة والتنميط الثقافي في السرديات المرئية، دراسة تحليلية لمضامين الدراما المرئية الغربية: أ.م.د محمد صبري صالح، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ع27، 2017م، 328-329.
- (2) صورة الآخر الحضاري (نقد الاستعلاء في المركزية الغربية): عامر عبد زيد الوائلي، مجلة الاستغراب (الذاتية والغريبة)، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ع10، 2018م، 159.
- (3) عولمة العولمة، من أجل التنوع الحضاري: د. المهدي المنجرة، منشورات الزمن، الرباط، ط2، 2011م، 68.

- (4) تصور الآخر، تمييز تمأسس وعنصرية ثقافية: مسعود كمال، مجلة الاستغراب (الذاتية والغريبة)، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ع10، 2018م، 17.
- (5) الحادثة وما بعد الحادثة: د. عبد الوهاب المسيري، د. فتحي التريكي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003م، 171.
- (6) إشكالية الأنا والآخر: د. ماجدة حمود، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013م، 132.
- (7) الحلوة: وارد بدر السالم، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 2017م، 23.
- (8) الرواية: 159.
- (9) الرواية: 177.
- (10) استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004م، 459.
- (11) في تحليل الخطاب، البلاغة وتحليل الخطاب: د. حاتم عبيد، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013م، 57. السينوغرافيا في حقل الخطاب الأدبي هو "ما يستخدمه الأفراد أثناء أحاديثهم من طرائق عرض مختلفة وضروب من التصرف في الفضاء وأطر التخاطب المتعددة، لغاية التأثير في الآخرين". المصدر نفسه: 49.
- (12) الرواية: 82.
- (13) ينظر: الإشهار والمجتمع: الإشهار والمجتمع: بيرنار كاتولا، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط1، 2012م، 266.
- (14) الرواية: 186.
- (15) الرواية: 290.
- (16) الرواية: 298.
- (17) الرواية: 214.
- (18) الرواية: 175.
- (19) الرواية: 261.
- (20) الرواية: 177.
- (21) إشكالية الأنا والآخر: 152.
- (22) ينظر: الذات والآخر في الشرق والغرب (صور ودلالات وإشكاليات): د. حسن شحاتة، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2008م، 66.
- (23) تمثيلات الحجاب بين الدين والأيدولوجيا: د. جنيدي عبد الرحمن، حويلات جامعة الجزائر، ع33، ج2، 2019م، 492.
- (24) الصورة بين الدلالة والتأويل: معروف محمد، أطروحة دكتوراه، جامعة الجليلي لبياس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 2017-2018م، 64.
- (25) الصورة في الرواية: ستيفين أولمان، تر: رضوان العيادي، محمد مشبال، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016م، 293.
- (26) الرواية: 69.
- (27) الرواية: 212.
- (28) الرواية: 72.
- (29) الرواية: 138-139.
- (30) مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية: أد. منى أبو الفضل، أد. طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة 2009م، 19.
- (31) الجسد والنظرية الاجتماعية: كرس شلتنج، تر: منى البحر، نجيب الحصادي، دار العين للنشر، القاهرة، ط1، 2209م، 146.
- (32) الرواية: 193.
- (33) الرواية: 156-157.
- (34) سوسيولوجيا الجسد: دافيد لو بروتون، تر: عياد أببال، إدريس المحمدي، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014م، 128.
- (35) الجسد والنظرية الاجتماعية: 103.
- (36) قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى: د. عبد الوهاب المسيري، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010م، 28.